

## الفصل الثالث

### ابن إياس ومعاصروه

ابن إياس ثالث المؤرخين الذين تداولوا الزعامة في حلبة التأليف في التاريخ المصري في القرن الخامس عشر الميلادي ، واسمه محمد بن أحمد بن إياس المصري الحنفي<sup>(١)</sup> ، ومولاه بالقاهرة سنة ١٤٤٨ م ، إحدى وعشرين سنة قبل وفاة أبي المحاسن . وابن إياس شبيهه بأبي المحاسن من حيث أن كلا منهما سليل أسرة مملوكية ، على أن ابن إياس كان أقدم عمراً في المجتمع المملوكي ، فبينما لا ندرى من أصل أبي المحاسن سوى أخبار أبيه وأمه منذ مجيئهما إلى مصر في عهد أستاذهما السلطان برقوق ، إذا بنا نعرف الجد الأكبر لابن إياس ، واسمه إزدسر العمري الفاصري أبو ذقن ، الشهير بالخانزدار . وكان إزدسر من أمراء الدولة

(١) أورد بروكلمان Brockelmann : Gesch. der Arab. Litt. II. p. 275 اسم ابن إياس كاملاً كالآتي : ” أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس زين الدين (أو شهاب الدين) الناصري الجركسي الحنبلي “ ، وكرّر نسبته إلى الحنابلة في ملحقه للكتاب المتقدم ، (Ibid : Supp. II. P. 205) ، وهو خطأ يبينه أن حنبلياً لم يكن بين المعروفين من مشايخ ابن إياس .

المملوكية الأولى زمن السلطانين حسن وشعبان، وتولى مدة حكم كل منهما وظيفة أمير سلاح، ونال في عهد ثانيهما حظوة وثقة خاصة، فتقلب في نيابات صغد وطرابلس وحلب، واختير أواخر أيامه لنيابة دمشق، ثم عاجله الموت وهو في الطريق إليها سنة ١٤٦٦م ولدنيا أيضاً معلومة قليلة بصدد جد ابن إياس لأبيه، واسمه إياس الفخري، وهو من مماليك السلطان الظاهر برقوق، وقد تأسر سريعاً، وتولى وظيفة الدوادار الثاني زمن السلطان فرج ابن برقوق.

أما والد ابن إياس، واسمه شهاب الدين أحمد، فكان على قول ابنه من مشاهير أولاد الناس، أي أنه من أفراد تلك الفرقة المملوكية التي ضمت أبناء الأصماء من المماليك المندرجين بالوفاة، حيث جرت العادة أن يُعطى للواحد منهم إقطاع متناسب مع رتبة أمير خمسة في النظام الحربي المملوكي رعاية لسلفه، بشرط أن يندمج في الرديف السلطاني، ويكون صالحاً للخدمة في إحدى الوظائف المدنية الصفري زمن السلم<sup>(١)</sup>. وذكر ابن إياس عن أبيه أحمد هذا أنه كان من المحبين إلى كثير من أصماء الدولة وأربابها، وأنه عاش نحواً من أربع وثمانين سنة،

---

(١) راجع القلقشندي (صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٥)،

ودائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية) مقالة ابن إياس.

وأنه أنجب في حياته الطويلة خمسة وعشرين ولداً ما بين ذكور وإناث ، بقي منهم بعد وفاته سنة ١٥٠٢ م بنت وصبيان ، أحدهما محمد بن إياس نفسه ، وثانيهما الجمال يوسف . أما البنت فلماها هي التي مات عنها زوجها الأمير قرقاس المصارع ، وهو من أمراء المشرات زمن السلطان قايتباي ، ووظيفته أمير آخور رابع في البلاط السلطاني ، وكانت وفاته سنة ١٤٧٢ م في وقعة البيرة على نهر الفرات ، حيث ظفر الجيش المماوكي بقيادة الأمير يشبك بن مهدي بجيوش حسن الطويل (أوزون حسن) ملك التركان المروفيين باسم الشاة البيضاء (Ak Koyunlu) . وأما الهبي الجمال يوسف فكان بالزردكاشية (هندسة المدفعية) ، على عهد السلطان قانصوه الغوري ، ويظهر أنه كان خبيراً بفنه ، وبيده وظيفة رئيسة في عمله .

يتضح من هذه الإشارات المنوعة أن ابن إياس نشأ في وسط مملوكي بحت ، وأنه متّ إلى بعض رجال الدولة المماوكية في عصر قايتباي والغوري بصلة المصاهرة والقرابة . غير أنه مما يدعو إلى السجب أن أحداً من معاصريه لم يترجم له بكثير أو قليل ، وأن مبلغ ما يعتمد عليه لإنشاء ترجمة حديثة لهذا المؤرخ الكبير لا يمدو نتفاً مبعثرة في كتبه التي ألفها ؛ وعملاً يرود الباحث غير ذلك من الكتب الماصرة والمأخرة ، كؤلفات الشينخين جلال الدين عبد الرحمن السيوطي وعبد الباسط بن خليل الحنفي ،

وهما من أساتذة ابن إياس بتقريره ، وكؤلفات السخاوى والنزى والأعظمى والبورينى واليمنى والمحسبى والمرادى ، وهم أصحاب كتب التراجم والسير للقرن التاسع والعاشر والحسادى عشر والثانى عشر للهجرة .

على أن فقدان هذه الترجمة لابن إياس لا يهجز الكاتب أو يهينه عن محاولة الكتابة فيه ، بل هو خسارة مشوية بربح وإن جاء سلبياً ، إذ يصبح اعتماده مقصوراً على ما هنالك من إشارات للمؤلف عن نفسه ورجال عصره فيما ألف من كتب ، فيستشف منها موقفه من الحوادث ، ويسبر بها دخائل شخصيته وأخلاقه . ومن تلك الإشارات الخاصة بهوية ابن إياس أنه نشأ كأبيه شهاب الدين أحمد ، وكأبي المحاسن كذلك ، في فرقة أولاد الناس (١) . وحج ابن إياس سنة ١٤٧٧ م دون أن يقوم على وظيفة معينة في الركب المصرى ، كملك التى أسفدت إلى أبى المحاسن فى حجته ، على أنه شهد ما لقيه الحاج ذاك الامام من عنت وفلاء وفناء بمكة ، بسبب ما وقع وقت ذاك بين السلطات المملوكية وبمض المسكين ، وجاء وصفه لما حدث برهانا على ما هنالك من دَخِين دائم وكره متبادل ، بين ممثلى السلطان وذوات الحجاز وأصرائه ، طوال عهد المماليك .

وظل ابن إياس معظم حياته متمتماً بإقطاع وافر ، يرجح

(١) انظر ما سبق ، ص ٢٤ ، ٤٧ .

أنه من لدن السلطان النورى ، فماش عيشة راضية ، واشتغل  
بالكتابة والتأليف فى التاريخ ، ونظم الشعر والزجل والواويل  
والموشحات والمزدوجات ، فى مناسبات شتى .

على أن منظومات ابن إياس توجب الالتفات : فهما ما هو مدح  
أورثاء لسلطان أو سلطانة أو أمير ، ومنها ما هو تهنئة بالشفاء من  
مرض أو النجاة من محنة لمين من أعيان الدولة ، ومنها ما هو نقد أو  
تمقيب على بعض الأعمال الحكومية . فهل نستخلص من تلك  
القرائن ، كما فعل مارجوليوث (Margoliouth) ، أن ابن إياس تولى  
وظيفة مؤرخ الدولة (Historiographer) فى الحكومة المملوكية ،  
برغم أنه لم يذكر شيئاً من ذلك على التمييز فى كتبه ، وبرغم أن  
وظيفة بهذا الاسم لم تعرف فى نظام المماليك ؟ أو نقول بأنه غدا  
من رجال الأدب المشغوفين بالمدح على هامش الحاشية السلطانية ،  
المتمصلين ببعض رجالها كأبيه من قبل ، وإنه اعتمل نظم الشعر  
اجتذاباً للشهرة ، كما وافته فرصة ؟ أو ترجح أنه أراد لنفسه مع  
السلطان محمد بن قايتباى مركزاً مشابهاً لمركز العيني مع السلطان  
برسباى ، أولركز أبي المحاسن مع السلطان المرجو محمد بن جقمق .  
على أنه مهما يكن من ترجيح أو ميل لهذا أو ذاك أو غيره مما يحتمل  
أن يكون وظيفة لابن إياس فى المحيط المملوكى ، فالواضح من  
أشعاره هذه ، ومناسباتها الخاصة والعامة ، أنه عاش فرداً متتبهاً  
عن كثر حوادث المجتمع الذى تقلب فيه ، وليس ذلك بصفتة

مؤرخاً مصنفياً بتدوين الحوادث والأخبار ، بل لأنه كان رجلاً حياً حساساً بما يجري في دولة بدت عليها مخايل الاحتضار والزوال ؛ وربما كان أوضح دليل على هذه الحساسية فيه قصيدته بصدده ضرائب المشاهدة التي ألغها السلطان الغوري أواخر أيامه ، وصريته التي قالها في وقعة الفتح العثماني لمصر .

وحدث لابن إياس في منتصف سنة ١٥٠٨ م ما عكس عليه صفو حياته المطمئنة ، إذ تآزمت أحوال السلطان الغوري لضيق سبل المال اللازم للصرف على مماليكه ، فعمد إلى إخراج أولاد الناس من أجناد الحلقة عن إقطاعاتهم ، وقطع الرزق الأحباسية والأوقاف عن أهلها ، وأطلق للماليكه العنان ليهاجروا أصحاب تلك الإقطاعات في بيوتهم ، وبأخذوا منهم مناشيرها غصباً وضرراً ، إذا احتاج الأمر إلى الضرب والإخراق و ” الهدلة ” . ونال ابن إياس من تلك السكارثة ما نال غيره من أبناء طبقة ، فذهب عنه إقطاعه الوافر إلى أربعة من المماليك بمكاتب سلطانية ؛ غير أنه لم يبق بغير إقطاع مدة طويلة ، إذ وقف للسلطان الغوري أوائل سنة ١٥١٠ م بقصة يشكو فيها طاله ، وقدمها إليه وهو في طريقه للعب الكرة بميدان القلعة ، فاستجاب السلطان شكواته ، وردّ عليه إقطاعه ؛ ومدحه ابن إياس من أجل ذلك بقصيدة طويلة من نظمه المعتاد .

غير أن ابن إياس لم يكن من المعجبين حقاً بالسلطان الغوري

وأعماله ، يشهد بذلك ما كتبه بصديده بعد وفاته في كثير من المناسبات بكتابه الكبير في التاريخ ، واسمه بدائع الزهور في وقائع الدهور . وهذا الكتاب الشامل لتاريخ مصر منذ أقدم العصور إلى أوائل العهد العثماني ، هو الذي جعل ابن إياس خليقاً بمركز الزعامة بين معاصريه من المؤرخين في مصر ، وأواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر الميلادي . وبدأ ابن إياس تأليف كتابه هذا حوالي سنة ١٤٩٣ م ، وظل معنياً به حتى أواخر أيامه ، فجاء في أحد عشر جزءاً ، وكان في عمره أن يضيف إليه ليكتمل اثني عشر جزءاً<sup>(١)</sup> ، لولا موته سنة ١٥٢٤ م . ثم تناول النساخون هذا الكتاب ، فنقلوا منه نسخاً بعضها كاملة وافية ، وبعضها مختصرة ناقصة ، والثانية هي أغلب ما بأيدينا منه حتى الآن ، ومن إحدى هذه النسخ الناقصة نُشر الكتاب في القاهرة ، فجاء بعيداً عن الأصل ، خلواً من أهم جزء من أجزائه<sup>(٢)</sup> .

(١) تلك مكتبة فاتح باستامبول أربعة أجزاء غير متتابعة من هذا الكتاب وهي بخط المؤلف ، وفي حردها ( Colophon ) أنه انتهى من كتابة الجزء الرابع أوائل سنة ٩١٠ هـ ( ١٤٩٥ م ) ، ومن الخامس أواخر تلك السنة الهجرية نفسها ، ومن الثامن أواسط سنة ٩١٣ هـ ( ١٥٠٧ م ) ، ومن الحادي عشر أواخر ٩٢٨ هـ ( ١٥٢٢ م ) . ووعداً بن إياس في نفس الصفحة التي وردت بها الإشارة الأخيرة أنه سوف يقوم على كتابة الجزء الثاني عشر ، وهو ما لم يكتبه بسبب وفاته ، أو أنه كتبه ولم يعثر عليه أحد حتى الآن .

(٢) أدركت هذا النقص جمعية المستشرقين الألمان باستامبول ، فنشر =

ومن مؤلفات ابن إياس في التاريخ كذلك كتاب عقود الجمان في وقايح الأزمان ، وهو مختصر مستقل لتاريخ مصر ، وليست له أية علاقة بكتابه الكبير أو بالنسخ المختزلة منه ، ثم كتاب نزهة الأمم في السجائب والحكم ، وهو تأليف صغير في تاريخ العالم ، وكتاب صرح الزهور في وقائع الدهور ، وهو مؤلف شعبي في قصص الأنبياء والرسل ، وربما كان لغير ابن إياس من المؤلفين ، برغم إشارته هو لبعض محتوياته في الفصل السابع من الجزء الأول من بدائع الزهور . ولابن إياس كذلك كتاب نشق الأزهار في عجائب الأقطار ، وهو كتاب في الفلك والهيئة وتركيب الكون (Cosmography) ، وآثار مصر الفرعونية وماوكها . وذكر ابن إياس في مقدمته لهذا الكتاب أنه قصد بتأليفه أن يجمع فيه أغرب ما سمع وأعجب ما رأى ، ولا سيما " عجائب مصر وأعمالها ، وما صنعت الحكماء فيها من الطلسمات المحكمة في البري " ؛ وكان فراغه منه سنة ١٥١٨ م ، وكثيراً ما استمد منه علماء أوروبا في القرن التاسع عشر الميلادي .

على أن شهرة ابن إياس تستند كلية إلى كتابه الأول في التاريخ ، إذ صار به عمدة المؤرخين في أحوال دولة المماليك وأخبارها مدة الطور الأخير ، والمرجع الرئيس لحوادث فتح

---

= الأستاذ كاله Kahle ، والدكتور محمد مصطفى ، والمرحوم سوبرنهيم (Sobernheim) ، ثلاثة أجزاء جديدة من هذا الكتاب .

العثمانيين لصر ، في أسلوب بديع ؛ ولذا ميزه مارجوليوث عن جمهرة المؤرخين المسلمين في مصر وغيرها بقوله : " إن أسلوبه في الكتابة والتأليف ، ونمطه في التفكير ، يتم كل منهما عن فردية واستقلال في الرأي قل أن يقربه فيه معظم المؤرخين (١) " .

والواقع أن ابن إياس كان على جانب من القدرة في النقد ، فلم يفتع بسرد الحوادث والوقائع والوفيات على وتيرة أغلب السالفين من كتاب التاريخ ، بل وقف بين الحادثة والأخرى يشرح ويمقب ويفلسف ، مع شيء من القسوة في الحكم ، والجرأة في التقدير ، والمفالة نوعاً في التصوير . وربما شججه على ذلك اتصاله ببعض أعيان البلاط السلطاني في عهود مختلفة ، كالأمير تراز الأتابك ، والأمير أقبردى الدوادار الكبير ، وكلاهما من رجال عصر قايتباي ، وكأبي بكر بن منهر ، ووالده البدرى محمد ، والقاضي محمود بن أجا ، وهم ممن شغل وظيفة كاتب السر في الدولة ؛ وهذا فضلاً عن صلته بأخيه الجمالي يوسف ، الذي أمده بما جرى بالقلمة من أخبار ، ولا سيما أخبار الدفعية التي عنى ابن إياس بتدوينها والإشارة إلى إهمالها على عهد الغورى

أما عن أخلاق ابن إياس ، فلا سبيل لمعرفة ما اشتهر به من صفات عند معاصريه ، ما دام الوجود من كتب المعاصرين والمتأخرين لا ينبي عنه بشيء البتة . على أن كتبه التي ألفها ،

(١) انظر (Margoliouth : Lectures On Arabic Historians

وملاحظاته التي أودعها إياها عن نفسه وحوادث عصره ورجاله ،  
تدلّ على الكثير من كنه شخصيته الكبيرة : فضخامة  
مؤلفاته برهان على أنه ظلّ طول حياته مجداً في الكتابة ، ودؤوبه  
على تدوين الحوادث يوماً يوماً وشهراً شهراً في الأجزاء المعاصرة  
من تاريخه يشهد بدقة ملاحظته وشدة استقصائه للحقائق ،  
وقسوته في الحكم على الناس تخبر بملو مستواه الخلق ، وتناوله  
الحكم العثماني في مصر بالنقد والسخرية أحياناً لإهمال رجاله مصالح  
المصريين - وذلك رغم ما أحاط السيادة العثمانية في القاهرة من  
رهبة وخشية - يعطيه مكانة سامية بين المؤرخين وغير المؤرخين .  
ومن يدري ؟ ربما كان موقفه هذا من الحكم العثماني هو السبب  
في خفاء ترجمته من كتب التراجم .

ولابن إياس معاصرون أربعة من المؤرخين ، وهم السيوطي ،  
وابن خليل ، وابن طولون الهمشقي ، وابن زنبيل الرمال . ولكل  
من أولاء فضل معلوم وسهم ظاهر فيما تجمّع للتاريخ المصري من  
تراث محفوظ ؛ وإذا لم يبلغ أحدهم مبلغ ابن إياس ، أو يقربه في  
المقدرة على التأليف الضخم في التاريخ ، فذلك راجع إلى أن  
ابن إياس قصر نفسه على الكتابة في ذلك الفرع وما يتصل به  
فقط ( وهذا عدا نظم الشعر أحياناً ) ، على حين أن معاصريه  
أولئك اشتغلوا بالتاريخ وغيره من العلوم والفنون والصناعات .  
ومثل ذلك السيوطي صاحب الأخبار الطوال في أشتهات العلوم

في عصره ، فإنه لم يترك ميدياناً من ميادين المعرفة دون أن يُجرى فيه قلمه ، وهذا فضلاً عن تدخله في بعض المسائل العامة في عصره .  
وُلد جلال الدين عبد الرحمن بن محمد السيوطي ، سنة ١٤٤٥ م بالقاهرة ، من أسرة ينتمي أصلها إلى شيخ من أهل الحقيقة والتصوف اسمه همام الدين الخضيرى - نسبة إلى محلة الخضيرية (١) ببغداد . وجاء هذا الشيخ إلى أسيوط ، وعاش بها زمن الدولة الأيوبية ترجيحاً ، وأقامت أسرته بها جيلاً بعد جيل ، وأخرجت رجالاً نابهين في المجتمع الأسيوطي في المصور الوسطى ؛ فمنهم نائب الحكم (القاضي) ، والمحاسب ، والتاجر ، والمتمول الخبير ؛ ومنهم من اتصل بالأمير شيخو الناصري إبان قيامه على إخماد ثورة الأحدث بالصعيد سنة ١٣٥٣ م ، في عهد السلطان صالح بن الناصر أحمد ، وهذا الأمير هو صاحب الجامع والخانقاه المعروفين باسمه بسويقة منهم فيما بين الصليبية والرميلة بالقاهرة الحالية (٢) . أما محمد أبو عبد الرحمن السيوطي فهو آخر من

(١) يظهر أن هذه النسبة ليست بنجوة من الشك ، على الرغم من أن السيوطي نفسه (حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٥٥) هو الذي رجحها . ذلك أنه كان بأسيوط وبالقاهرة كذلك موضع اسمه الخضيرية زمن السيوطي ، وربما كان ترجيحه لمحلة بغداد من باب إرجاع أصله إلى جهة بعيدة عظيمة الشأن ، لاسيما أنه جهد في أحد كتبه الصغرى أن يقول كذلك لأنه أنصاري جعفرى الأرومة ، وإن جده من أم شريفة النسب .

(٢) انظر المقرئى : المواعظ والاعتبار - طبعة بولاق - ج ١ ،

ص ٣١٣ ، ٤٢٠ ؛ والسيوطي : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٥٥ .

أقام من تلك الأسرة بأسيروط ، إذ انتقطع من دون رجالها جميعاً  
لطلب العلم والتعليم ، ورحل من أجل ذلك في حدائته إلى  
القاهرة ، وأفاد على ما يظهر من صلة سلفه بالأمر شيخو ، فتولى  
درس الفقه بالجامع الشيخوني ، وخطب بجامع ابن طولون ،  
وألف كثيراً في الفقه والنحو ، وتوفي في عشر الحسين ،  
سنة ١٤٥١ م ، ولما يبلغ ابنه عبد الرحمن ست سنين (١) .

وكانت والدته عبد الرحمن أم ولد تركية ، أنجبته وأبوه  
بالغ في السن مبلغ النضج ، فجاء عبد الرحمن ناضجاً من يومه ،  
على قول الإخصائين في علم الأجناس . وكأنا توسم فيه والده  
شيئاً من ذلك ، إذ قررت به عيناه حين رزقه وهو مشرف على  
الحسين ، فعنى بتعليمه أشد عناية ، وحفظه جزءاً كبيراً من

---

(١) ترجم السيوطي لأبيه في كتابه حسن المحاضرة (ج ١ ،  
ص ١٥٥ ، ٢٠٨ — ٢٠٩) ، وفي بنية الوعاة في طبقات النحاة (ص  
٢٠٦ — ٢٠٧) . والسيوطي نفسه غنى بترجيح الماصرين والمتأخرين  
والمحدثين ، إذ يوجد له عدا ترجمته الذاتية في حسن المحاضرة (ج ١ ،  
ص ١٥٥ — ١٦١) ، ترجمة في كل من السخاوي والشمراني والقرظي ،  
والبوريني وابن العماد الحنبلي وابن إياس ، وعلي مبارك باشا ودائرة المعارف  
الإسلامية وفيليب حتى . ويوجد في ابن طولون الدمشقي (الملك المشعون ،  
ص ٦) إشارة إلى ترجمة ذاتية أخرى للسيوطي في كتابه بنية الوعاة ، غير  
أن المطبوع من هذا الكتاب لا يشمل ترجمة له ألبتة . وذكر البيني  
(السنا الباهر ، ص ٧٧) أن للسيوطي كذلك ترجمة ذاتية ثالثة في كتاب له  
اسمه التحدث بنعمة الله تعالى ، وهذه عدا ما هنالك من تراجم أخرى  
بقلم تلميذه الشاذلي الداودي .

القرآن ، واستقصجبه أكثر من صرة إلى مجلس ابن حجر في الحديث . وغدا عبدالرحمن محظوظاً كذلك في أوصيائه ، إذ لحظوه برعايتهم ونظرهم ، ونجحوا في تقريره على وظيفة الجامع الشيخوني بعد وفاة أبيه ، ولداً نشأ يتيماً ناعم البال .

واستطاع عبد الرحمن أن ينجم القرآن ، وهو دون الثامنة من عمره ، فدل بذلك على ذاكرة قوية وحافظة واعية . ثم أخذ في طلب العلم بأنواعه ، فسلم يتماص عليه فرع أو يتماظمه فن ، إلا الحساب فإنه ثقل عليه النظر فيه لعدم ملاءمته طبيعته ، وإلا المنطق فإنه كرهه وعزف عنه لسبب مشابه . أما ما عدا ذلك من العلوم ، كالتفسير والحديث والفقهاء ، والنحو والمغني والبيان والبديع ( على طريقة العرب والبلقاء ، لأعلى طريقة المجتم وأهل الفلسفة ) ، وأصول الفقه والجدل ، والتصريف والإنشاء والترسل ، والفرائض والقراءات والطب ، فالسيوطي نفسه قال إنه درسها حتى بلغ فيها درجات متفاوتة في السكال ، وإنه رزق التبجر في السبمة الأولى منها حتى فاق أشياخه كلهم — فضلاً عن هو دونهم علماء ورسماً — ، وإنه اخترع علم أصول اللغة وورثه ، وإنه وصل إلى مرتبة " المجتهد المطلق " في الحديث والفقه والمربية باجتماع " آلات الاجتهاد " كلها لديه ، ولو شاء أن يكتب في أية مسألة مصنفًا بأفوالها وأدلتها النقلية والقياسية ، وسدركها ونقوضها وأجوبتها ، مع الموازنة بين اختلاف المذاهب فيها ، لقدرة على ذلك

كله تماماً في غير عناء . ولا غرو في ذلك مادام أن السيوطي نفسه قال مرة لشيخه الشيخ السخاوي وهو يحاوره نظماً : ” علمي كبحر من الأمواج ملتنظم “

بلغ عبد الرحمن السيوطي ذلك المقام الزاخر من العلم — مع المباهاة العريضة بكيفه وكه لبيه — بعد حياة دراسية طويلة بالقاهرة ، وأسفار كثيرة في البلاد المصرية وغيرها . وتفصيل ذلك بتقريره أنه درس على ستمائة شيخ من شيوخ عصره بمختلف البلاد ، وأنه سافر من أجل ذلك إلى مراكز العلم بدمياط والإسكندرية ، والمحلة الكبرى والفيوم ، ومكة حيث حج وجاور سنة كاملة . وقد ترجمت لديه أثناء ذلك كله برادات وشهادات وإجازات كثيرة ، أولها إجازة بتدريس اللغة العربية سنة ١٤٦١ م ، وعمره وقتئذ سبعة عشر عاماً ، ومن المعروف أنه بدأ التأليف تلك السنة بكتاب في شرح الاستعاذة والبسملة .

على أن السيوطي لم ينصرف إلى تدريس اللغة العربية على ما يظهر ، بل باشر تدريس الفقه بالجامع الشينخوني الذي لم تنقطع عنه وظيفته منذ وفاة أبيه ؛ وكان تعيينه هناك بسفارة شيخه البلقيني سنة ١٤٦٥ م . ثم تصدّى السيوطي للإفتاء وإملاء الحديث ، بجامع ابن طولون سنة ١٤٦٧ م ؛ وأضيف إليه تدريس الحديث ووظيفة الإسماع بالخانقاه الشينخونية سنة ١٤٧٢ م ، بمساعدة الأمير إيفال الأشقر ؛ كما تولى مشيخة التصوف بتربة برقوق نائب الشام التي

تقع بباب القرافة الحالية ، بعناية ببلدته أبي الطيب السيوطي  
وبقى السيوطي متولياً تلك الوظائف كلها حتى ناهز الأربعين من  
عمره ، ثم انتقل عنها إلى مشيخة الخانقاه البيهرسية سنة ١٤٨٦ م ،  
وهي أكبر خوانق القاهرة وأوسعها<sup>(١)</sup> أوقافاً في عصره ،  
وصاحب الفضل في تعيينه عليها الخليفة المتوكل على الله عبدالعزيز  
المباسي . ومن ثم انقطع السيوطي عن التدريس والإفتاء والإملاء  
والإسماع ، وأخذ في التجرد للمعبادة كما قال الشعراني ، وأنه  
انجمع وتمشخ على قول السخاوي . وشرع السيوطي منذئذ  
في تحرير مؤلفاته ، وربما ألهاه التكاثر عن الإتيان ، فلم يمتن  
في بعض الأحيان ، بل جرى قلمه بالتأليف السريع حتى أربت  
كتبه على الخمسمائة ، سوى ما غسله ورجع عنه ، ولذا جاءت أكثر  
مؤلفاته<sup>(٢)</sup> جمماً لا تأليفاً .

وهال المعاصرين والمتأخرين والمحدثين أن ينسب ذلك المدد  
الجم من السكتب إلى مؤلف واحد ، وفسره السخاوي بأن  
السيوطي اختلس كثيراً من تصانيف ابن تيمية وابن حجر  
والسخاوي وغيره ، من مجموعة عثر عليها كلها بمكتبة المدرسة

(١) المقرئ (المواعظ والاعتبار — بولاق — ج ٢ ، ص ٤١٦) .

(٢) لم تقتصر كثرة المؤلفات على السيوطي وأشباهه من المؤلفين

المسلمين ، بل صدقت تلك الظاهرة كذلك على بعض المؤلفين الغربيين في  
العصور الوسطى ، ومثال ذلك رامون لول الإسباني ، إذ بلغت مؤلفاته

خمسمائة . انظر (Alison Peers : St. John of the Cross. p. 61)

المحمودية ، وأنه عدل فيها يسيراً ، وقدّم وأخّر ، ونسبها لنفسه  
بعد أن هوّّل في مقدّماتها .

غير أنه مهما قيل في هذا الباب ، فإن تهمة الاختلاس لا يمكن  
أن تنصبّ على جميع مؤلفات السيوطي ، بل لدينا من حقيقة  
الحال الملمية في عصره ، ومما يستطاع استنتاجه من نفسيته  
وعقليته وأخلاقه وأحواله ، ومن بساطة المسائل التي أفرد لها  
كثيراً من كتبه ، ومن أحجام تلك الكتب التي أدجها في  
تعدادها الضخم ، ما يساعد على تعليل ذلك التكرار الخارق في التأليف  
تعليلاً معقولاً . ذلك أن عصر السيوطي — وهو الحقبة الأخيرة من  
عهد المماليك عصر المستقلة — كان عصر الجمع والتلخيص والتكميل  
والشرح والحواشي ، وليس به في الواقع من المؤلفات — فيما  
عدا الكتب التاريخية — ما يصح أن يوصف بغير ذلك من  
الصفات . ومثال ذلك من كتب السيوطي الكبرى كتاب  
تكملة تفسير القرآن للشيخ جلال الدين المحلي ، والمعروف أن  
السيوطي أنهاه في أربعين يوماً ، وكتاب طبقات الحفاظ ،  
وهو تلخيص وتكملة للذهبي ، وكتاب لب اللباب في تحرير  
الأنساب ، وهو اختصار لعز الدين بن الأثير ، واستغرق السيوطي  
في إنجازها عشرة أيام فقط . ثم أن السيوطي اعتقد في نفسه أنه  
بلغ درجة الاجتهاد المطلق في الحديث والفقه والعربية ، وأنه  
لو شاء أن يكتب في كل مسألة مصنفاً تاماً لاستطاع كما تقدّم ،

وأنه المبعوث على رأس المائة التاسعة للهجرة ، وأنه رأى النبي عليه الصلاة والسلام وخطبه في اليقظة والنام خمسين مرة ، فطلبت منه تلك الدعوى أن يكتب كثيراً ليدعم أقواله . يضاف إلى ذلك أن السيوطي عاش غضوباً ، تكلفه الغضبة الواحدة رسالة أو أكثر يكتبها في يوم أو ليلة . ايرد بها على من أغضبه أو خالفه أو سخر منه (١) . ومن الأمثلة الدالة على أثر ذلك كله في عدد مؤلفات السيوطي كتاب إرشاد المهتدين في نصرة المجتهدين ، وكتاب الرد على من أخذ إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض ، وكتاب التنبئة بمن يبعثه الله على رأس كل مائة ، وكتاب الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف (٢) ، وكتاب تنوير الحلك في إمكان رؤية النبي والملك . ثم إنه دأب على التدخل في

---

(١) قال السيوطي ، نقلاً عن الشيرازي ( ذيل الطبقات الكبرى ، ص ٤ ) : " وخالفني أهل عصرى في خمسين مسألة ، فألفت في كل مسألة مؤلفاً بينت فيه وجه الحق " ، وهذا عدداً ما كتبه لتبرير موقفه من مسائل معينة كما سيلي . انظر كذلك ابن إياس : بدائع الزهور — بولاق — ، ج ٢ ، ص ٢٨٠ .

(٢) أشار السيوطي إلى مسألتى اجتهاده ومبعوثيته إشارات خفيفة في كثير من مؤلفاته ، غير أنه خلع النقاب تماماً في هذا الكتاب ، إذ قال : " فإن ثم من ينفخ أشداقاً ويدعى مناظرتي ، وينكر على دعوى الاجتهاد والتفرد بالعلم على رأس هذه المائة ، ويزعم أنه يمارضني ويستجيش عليّ بمن لو اجتمع هو وهم في صعيد واحد ، ونفخت عليهم نفخة واحدة صاروا هباءً منثوراً . ( راجع مقدمة الدكتور فيليب حتى لكتاب نظم المقيبان ، صفحة ش — ص ) .

المسائل العامة في عصره ، ومثل ذلك قيامه في مسألة ابن الفارض سنة ١٤٧٠ م ، وكتابه في ذلك مقامة اسمها قمع المراض في نصرة<sup>(١)</sup> ابن الفارض ، وإفتاؤه من غير تفويض بأنه لا يجوز البناء على ساحل الروضة ، لأن الإجماع منعقد على منع البناء في شطوط الأنهار الجارية ، وله في ذلك " كتاب " كذلك . ثم إن السيوطي أحب التسلي بالكتابة في موضوعات واهية تافهة ، ومثل ذلك كتاب الإسفار عن قلم الأظفار ، وكتاب بلوغ المسارب في قصص الشارب ، وكتاب الوديك في فضل الديك ، وكتاب مسألة ضرب زيداً قائماً ، وكثير من هذه لا يمدو كراسة أو ورقة أحياناً .

ومهما يكن فليس لجميع جولات السيوطي في علوم عصره ومسائله الخاصة والعامة متسع كاف<sup>(٢)</sup> بهذه السطور ، إذ البحث محدود بمنوانه ، والتعريف فيه بالسيوطي قاصر على تقديره بين المؤرخين بمصر في حقبة معينة ، فلا يجب أن تطغى كثرة القول في غير ذلك من أشتات نشاطه على ما هنالك من غرض أصلي ، وهذا بالإضافة إلى أن مؤلفاته التاريخية ليست سوى شيء قليل

---

(١) انظر ابن إياس : بدائع الزهور — بولاق — ج ٢ ، ص ١١٩ ؛  
ومجموعة مؤلفات السيوطي الصغرى ، بدار الكتب المصرية ، تحت  
رقم ٩٨ مجاميع .

(٢) راجع السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٦٠

بالتقريب إلى كتبه في غير التاريخ من العلوم . ومن تلك المؤلفات التاريخية كتاب حسن المحاضرة بأخبار مصر والقاهرة ، في جزئين ، وهو تاريخ للبلاد المصرية والقاهرة عاصمتها ، مع بعض فصول إضافية في النظم المملوكية وأساليبها ، وطبقات العلماء والأصلاء والصوفية في مصر ؛ وقد كتبه السيوطي في عصر السلطان قايتباي ، واعتمد في تأليفه على ثمانية وعشرين مؤلفاً عددها في مقدمته . ومن مؤلفاته كذلك كتاب تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين ، وكتاب تاريخ السلطان الأشرف قايتباي ، وكتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور ، وهو كتاب شمسي في التاريخ العام ، وكتاب تاريخ أسيوط ، وكتاب كوكب الروضة ، وهو تاريخ لجزيرة الروضة جنوبي القاهرة ، ألفه السيوطي سنة ١٤٨٩ م ، ونقل فيه كثيراً مما كتب المقرئ في هذا الموضوع ، وكتاب تاريخ العمر ، وهو ذيل على أنباء العمر لابن حجر ، وكتاب المنتقى من تاريخ ابن عساكر ، وكتاب الشماريخ في علم التاريخ ، وهو رسالة قصيرة في أصل اتفاق المسلمين على جعل الهجرة النبوية مبدأ للتاريخ الإسلامي ، وإجماعهم على اعتبار المحرم أول الشهور ، مع شرح وتعليل لأسماء الشهور الهجرية . وللسيوطي عدا ذلك كتب كثيرة في التراجم والطبقات ، ومنها كتاب نظم العقيان في أعيان الأعيان ، وكتاب بنية الوعاة في طبقات النحاة ، وكتاب الملتقط من الدرر الكامنة ، وهذا فضلاً عن مؤلفاته في سائر علوم عصره .

وقيل بحق إن السيوطي لم يكن مؤلفاً في معظم هذه الكتب التاريخية وغيرها ، بل إنه جمع فأوعى فقط ، واختصر وتلخص فحسب ، وربما نسب لنفسه مؤلفات لغيره ، كما قرّر البخاري . على أن ذلك ليس بالقليل - أو الغريب - في المصور الوسطى في الشرق والغرب ، ولم يسلم من تلك التهمة كل من المقرئ وأبي المحاسن ، وهما من أساطين المؤرخين بمصر في القرن الخامس عشر الميلادي . ثم إنه ليس من النصفنة في شيء أن يقاس السيوطي وغيره بمقاييس اليوم ، بل إن فضل السيوطي فيما صنع على وجه العموم واضح - وإن جاء فضلاً مشوباً - إذ حفظ بتلك الطريقة كتباً مفقودة أصولها حتى الآن ، ولولا قلمه لما وصل منها شيء للمتأخرين . ثم إن السيوطي وضّح بطريقته هذه حال الملوم والعلماء في عصره ، ونفق كتباً ظلمت بعيدة عن متناول الناس والعامة لندرتها أو ضخامتها ؛ وانتشرت تلك الكتب في ثوبها المختصر إلى جميع البلاد الإسلامية ، من صراكش والتكرور إلى الهند واليمن ، وذاع معها صوت السيوطي ذيوماً يشهد به وجود الكثير منها بخطه ، في مختلف المكتبات الإسلامية وغير الإسلامية القديمة ، ولا سيما بالهند .

وهما أعان السيوطي على التفرغ لكتابة ما كتب من مؤلفات ضخمة ورسائل صغيرة ، أنه ظل طويلاً على مشيخة البيرونية متمماً بوظيفتها الوافرة ، منذ تولّاها أواخر عهد قايتباي ،

وهذا على الرغم من قيام بعض أعدائه من القضاة وغيرهم بالوقامة به عند ذلك السلطان الطيب . غير أنه أغضب قايتباي آخر سنة من حكمه ( ١٤٩٥ م ) ، بسبب طلوعه إلى حضرته في مسألة وعلى رأسه الطيلسان ، مخالفاً بذلك بعض التقاليد المرعية ؛ ومع أنه عوتب على مخالفته ، فإنه أصر على صحة موقفه ، وكتب في ذلك رسالة اسمها الأحاديث الحسان في فضل الطيلسان . وامتنع السيوطي من بعد ذلك عن الطلوع إلى السلطان ، بل رفض أن يذهب مع العلماء تهنئته بالشفاء من مرض ألمَّ به ، محتجاً بأن عدم طلوع العلماء للملوك سنة ، وألّف في ذلك كتاباً سمّاه ما رواه الأساطين في عدم الحجى إلى السلاطين<sup>(١)</sup> .

ومع هذا كله بقي السيوطي على وظيفته بالببرسية حتى وفاة قايتباي . غير أنه أفسح لأعدائه بمواقفه هذه سبيلاً إلى تأجيج النار عليه ببلاط السلطان الجديد ، وهو محمد بن قايتباي ؛ وكانما أحسن السيوطي بما سوف يناله قريباً من عزل عن وظيفته الرغيدة ، فحسن للخليفة المتوكل على الله عبد العزيز العباسي سنة ١٤٩٦ م أن يولّيه قاضياً كبيراً على جميع القضاة بمصر والشام وسائر الممالك الإسلامية المجاورة ، وأن يجعل بيده الولاية والعزل فيهم مطلقاً ، وهي وظيفة لم يحرزها قط في العالم الإسلامي سوى القاضي تاج الدين ابن الأعرز في الدولة الأيوبية ، بعد أن صار لتلك الدولة سيادة

(١) الشعراني : ذيل الطبقات الكبرى ، ص ١٩ — ٢٠ .

فملية على جميع بلاد الشرق الأدنى . على أن السيوطي لم يفكر في تلك الوظيفة لتكوز له مخرجاً من البيبرسية فحسب ، بل يظهر أنه أراد أن يستخدمها في النيل من بعض أعدائه ، وربما رأى فيها تحقيقاً لما قال به من وجوب قيام الخلافة القطبية الباطنة فوق الخلافة المباسية الظاهرة<sup>(١)</sup> . ثم قامت القيامة بين القضاة والناس ، حين شاع أن الخليفة يهد إلى السيه طو ، بتلك الوظيفة ، وما زال القضاة بالخليفة حتى أشهدوا عليه بالرجوع عنها ، واعترف بالأمر بأن السيوطي هو الذي اقترعها عليه<sup>(٢)</sup>

ثم حدث في سنة ١٤٩٧ م ، أن قطع السيوطي جَميلة الصوفية بالخانقاه البيبرسية ، بحجة أنهم خانوا طريقهم وفسوا صوفيتهم ، فثار نأثرهم عليه ، وحلوه بأتوابه ورموه بفسقية الخانقاه ، وكادوا أن يقتلوه . وافترض أعداؤه تلك الفرصة ، ومنهم الأمير طومان باي الدوادار ، فحوكم السيوطي وثبت لدى قضاة أن طمعه أفسده ، وأن تفكيره في الاستيلاء على دراهم الصوفية الفقراء جملة غير صالح للبقاء في مشيخته ، ولذا عُزِل . واعتكف السيوطي من ثم في بيت له بجزيرة الروضة<sup>(٣)</sup> ، حتى

---

(١) انظر السيوطي : كتاب التنبئة بمن يبعثه الله على رأس كل مائة . ( دار السكتب المصرية ، رقم ٩٨ مجاميع ) .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور — بولاق — ، ج ٢ ، ص ٣٠٧ .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور — بولاق — ، ج ٢ ، ص ٣٣٩ ؛

فيليب حتى : مقدمة نظم العقيان ، صفحة ر .

إنه لم يفتح شبابه على المطلقة على النيل مدّة ، وكتب في ذلك رسالة اسمها تأخير الظلام إلى يوم القيامة . على أن محنته لم تنته بتلك الحادثة ، إذ تسلطن طومان باي الدوادر سنة ١٥٠٠ م ، وخاف السيوطي بطشه ، فاختمت بجهة غير معلومة ، وظلّ محتفياً شهوراً حتى وفاة هذا السلطان وتولية قانصوه الفوري بعده أواخر تلك السنة . وعندئذ رجع السيوطي إلى بيته بالروضة (١) ، غير أنه فضل البقاء في عنزته ، ولم يقبل أن يعود إلى الحياة العامة ، إذ عرض عليه الفوري وظيفة المشيخة بمدرسته ومدفنه بالقبة الزرقاء فرفض (٢) ، وما زال على أزوائه حتى مات سنة ١٥٠٥ م . وللسيوطي قبر بأسيوط يزار ، ولكنه مزور ، إذ المعروف أنه دفن بحوش الأمير قوصون ، خارج باب القرافة بالقاهرة

أما عبد الباسط بن خليل الحنفي ، فهو سليل أسرة مملوكية معروفة بالقاهرة منذ أوائل القرن الخامس عشر الميلادي على الأقل ، وأبوه الأمير المحدث خليل بن شاهين الذي تقدم التعريف به ضمن معاصري المقرئ من المؤرخين البارزين ، وأمه الأميرة أصيل أخت امرأة السلطان برسباي . ومولد عبد الباسط سنة ١٤٤٠ م ، بمطية بأطراف أسيا الصغرى ، حيث كان أبوه

(١) ابن إياس : بدائع الزهور — بولاق — ج ٢ ، ص ٣٩١ .

(٢) الشمراني : ذيل الطبقات الكبرى ، ص ٢١ .

مقولياً نيابتها من قبل السلطان جقمق ، وقضى طفولته وشبابه متنقلاً بين البلاد التي اتفق لأبيه الإقامة فيها موظفاً مرضياً عنه ، أو طرخاناً منسياً أو مفضوباً عليه ، مثل حلب واخليل والقدس ودمشق وبنسداد والقاهرة ومكة وطرابلس ، فتلقى علوم عصره على شيوخ مختلفين ، ومنهم أبوه الذي أقرأه الكثير من الكتب في شتى العلوم ، كما علمه اللغة التركية أيضاً .

وشغف عبد الباسط كأبيه بالتحصيل الواسع ، فذهب مثله إلى بلاد كثيرة من المغرب لم تعيينها المراجع ، وتلقى هناك دروساً في الفحو والكلام والطب حتى أتقنها . ثم استقر أخيراً بالقاهرة ، بعد وفاة أبيه خليل سنة ١٤٦٨ م ، فنزل بالخانقاه الشيخونية وتصوف ، وتمرف إلى السيوطي متولى مشيختها ، وإلى يونس الرومي المنطيق نزيلها ، وسمع كذلك على غيرها من علماء القاهرة ، واعتبره السخاوي من تلاميذه في التاريخ .

واشتهل عبد الباسط بعد ذلك بالتأليف في مختلف العلوم والفنون ، ونظم ونثر ؛ غير أن المراجع لا تنبئ بشيء يدل على غير ذلك من عمل رسمي ووظف عليه في الدولة المملوكية . ومن مؤلفاته المعروفة في التاريخ كتاب نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ، وكتاب نيل الأمل ، وهو تكملة لتاريخ الذهبي ، وكتاب الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم ، وهو ذيل لتاريخ أبي المحاسن المشهور ، وكتاب تاريخ الأنبياء الأكبر

وبيان أولى العزم منهم . وله عدا ذلك كتاب الوصلة في مسألة  
القبلة ، وكتاب الحكمة والسر في كون الضوء ، وكتاب القول  
المأنوس ، وكتاب شرح القانون نشة في الطب ، وكتاب عمدة الطالبين  
ورغبة الراغبين في الفقه . وهذه المؤلفات كلها لا تزال في  
ظلمات المخطوطات ، بمختلف مكاتب الشرق والغرب ، ما عدا  
الكتاب الأخير منها فإنه مطبوع طبعاً سقيماً .  
ولعبد الباسط فوق هذا نظم سبعة في كتب معاصره ،  
ولا سيما ابن إياس الذي نشته بلفظ " شيخنا " في تاريخه أكثر  
من مرة ، ولا بد أن مؤلفات عبد الباسط نفسها تحوى منه كثيراً .  
ومن ذلك النظم أبيات في مناسبات شتى : مثل وفاة النيل بمد توقف  
طويل سنة ١٤٩٣ م : ومرثية في وفاة السيوطي سنة ١٥٠٥ م ،  
وفي هذين المثليين وغيرهما دليل على أن عبد الباسط عاش كابن إياس  
— وأبي المحاسن كذلك — بين رجال الأدب المتقنين في هامش  
البلاط السلطاني ومجتمعات الخاصة في دولة المماليك . والواقع أن  
عبد الباسط مشابه لابن إياس في كثير من الوجوه ، فكلاهما ابن  
أمير مملوكي ومن أولاد الناس على قول مصطلح العصر ، وكلاهما  
مؤرخ وشاعر . على أن عبد الباسط امتاز عن صاحبه المؤرخ  
بأنه ألف في غير التاريخ من علوم زمانه ، كما امتاز على سائر أصفائه  
ومعاصريه من أهل القلم بأن ما لدينا من نماذج نظمته خلوة  
من التهانى والمدبح ، بل يدل على أنه عاش متعزلاً مترافماً ،

وجاء ما كتبه فيه كلٌّ من السخاوي وابن إياس مصداقاً لذلك تماماً ، إذ قال أولها بأنه : " إنسان ساكن أصيل منجمع عن الداس " (١) ، ووصفه ثانياً وصفاً قلمياً دقيقاً تناول هيئته وبزته وأخلاقه ، حين قال إنه " كان صفته طويل القامة نحيف الجسد ، وكان يرى ذؤابة شعر في رأسه على طريقة الصوفية ، وكان له أنف وافر جداً . . . . . وكان . . . . . ضئيلاً بنفسه ، وعنده بس طباع مع شم زائد ، وكان معظمها عند الأراك والأصراء ، وكان عارفاً باللغة التركية ، وفيه جملة محاسن ، وكان بقية السلف وعمدة الخلف " (٢) .

وتوفي عبد الباسط سنة ١٥١٤ م ، بعد مرضه بالسل مرضاً ألزمه داره أكثر من سنة ؛ ويلاحظ أن وفاته حدثت والمائة المائسة للهجرة كرت من أعوامها عشرينا ، أي أنه كان من رجال القرن العاشر بقدر ما هو من أهل القرن التاسع ، ومثله وأكبر منه في هذه الخضومة حسن بن الطولوني ، وغيره من مؤرخي تلك السنين من تاريخ المهاليك .

ولد حسن بن حسين الطولوني سنة ١٤٣٢ م من أسرة يرجع أصلها إلى زمن الدولة الأيوبية ترجيحاً ، واشتغل كثير من أبناء تلك الأسرة بالهندسة والمعار ، فكان منهم غالباً " معلم

(١) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٤ ، ص ٢٧ .

(٢) ابن إياس . بدائع الزهور - طبعة استانبول - ج ٤

المعلمين<sup>(١)</sup> ، وهو كبير المهندسين في مصطلح الدولتين الأيوبية والملوكية بمصر ، وعليه الممول في المأثر السلطانية . واستقام الحظ المادى تماما لتلك الأسرة أواخر القرن الرابع عشر الميلادى ، حين تزوج السلطان برقوق من أخت معلم المعلمين أحمد ابن الطولونى ، ثم من ابنته بعد طلاق عمته . وأحمد هذا جد حسن بن الطولونى ، فلما جعله السلطان برقوق من أمراء المهاليك برتبة أمير عشرة ، تزيًا بزي الأتراك ، وصار بذلك إنسانًا ناجحًا ، وظل على إمرته ووظيفته حتى وفاته سنة ١٣٩٨ م ، وهى السنة التى مات فيها برقوق .

نشأ حسن بن الطولونى على مهنة آباءه ، ودرج فى عزهم وجاههم<sup>(٢)</sup> ، مع ميل إلى الفقه والتاريخ والأدب والغناء والفروسية ، وهو ممن عدّهم السنخاوى من تلاميذه فى التاريخ ، ويظهر أنه اشتغل بوظيفة مهارية صغيرة فى أول أمره . ثم وقعت الفتنة التى أدت إلى اعتقال السلطان إيفال عرش الدولة الملوكية سنة ١٤٥٣ م ، وعمل فيها حسن بن الطولونى بأن أشرف

---

(١) وردت هذه الوظيفة باسم معلم المهارية فى أبى المحاسن ( النجوم الزاهرة ، طبعة كاليفورنيا ، ج ٧ ، ص ٤٢٧ ) ، وباسم معلم السلطان كذلك فى نفس المرجع ( ج ٧ ، ص ٧٠٤ ) .  
(٢) ليس فى المراجع التى اعتمد عليها كاتب هذه السطور ما يدل على شىء البتة بصدد حسين أبى حسنة بن الطولونى صاحب الترجمة هنا ، وربما كان كذلك من رجال المهار .

على حصار قلعة الجبل حتى سقطت ، فجازاه إينال بأن عيَّنه على  
وظيفتي معلم المعلمين وإمارة المحمل . وشغل المعلم حسن الوظيفة الأولى  
من هاتين الوظيفتين سبعة عشر عاماً ، تخللتها عهود السلاطين  
إينال وابنه أحمد وخشقدم ويلباي وتمريغا وقايتباي حتى سنة  
١٤٦٩ م ، فمزل عنها سنة ذلك لسبب لم تذكره المراجع . ثم أعاده  
السلطان قايتباي إلى تلك الوظيفة بسفارة الأمير يشبك بن مهدي  
الدوادار ، فقام على عمائر السلطان خير قيام ، ومنها جامع الروضة  
المروف بالمقسي على شاطئ النيل ، وهو الجامع الذي تم بناؤه سنة  
١٤٩٠ م ، وأفتى بسببه السيوطي ذكايه في قايتباي بأن الإجماع  
منعقد على منع البناء على شطوط الأنهار الجارية .

وظل ابن الطولوني متممًا برضى السلطان قايتباي ، وحظى  
عنده حتى أصبح وسيلة الناس لديه ، وسكن الروضة حيث الجامع  
السلطاني ، وأقام به الوقفات الحافلة ليلة الرابع عشر من كل شهر ،  
وأحضر لذلك قراء القاهرة ومؤذنيها ووعاظها ، ليشرح بهم حبه في  
أنغام القراءة والأذان والوعظ . وحيج ابن الطولوني سنة ١٤٩٢ م  
موسمياً ، ورافقه السخاوي في ركب ذلك العام ، فرأى من خير  
معلم المعلمين وإحسانه وحسن هيئته ما لم يجد له نظيراً بين حاج  
تلك السنة . ثم توفي السلطان قايتباي سنة ١٤٩٥ م ، فظل ابن  
الطولوني على وظيفته ، بل ولأه السلطان محمد بن قايتباي نيابة

القلمة كذلك ، فوجده خادماً مخلصاً لقيامه بتحسين القلمة  
تحسيناً عظيماً أثناء فتنه الأمير قانصوه خمسة .

ولابن الطولوني في التاريخ كتاب الزهرة السنية في ذكر  
الخلفاء والملوك المصرية ، وهو مختصر يبدأ بتاريخ ظهور الإسلام ،  
وينتهي بحوادث السلطان طومان باي آخر سلاطين المماليك بمصر ،  
والراجع أن له كتاباً ثانياً في التاريخ على صورة المذكرات أو  
اليوميات ، غير أنه لا يوجد ما يدل عليه حتى العصر الحاضر  
سوى قول ابن إياس في ترجمة ابن الطولوني بأنه ” أنشأ تاريخاً  
لضبط الوقائع “<sup>(١)</sup> ، وأكبر الظن أنه مدفون في مجموعة من  
المجموعات الخطية التي تملأ مكتبات العالم ؛ ولابن الطولوني عدا  
ذلك شرح مقدمة أبي الليث والأجرومية .

وعاش ابن الطولوني حتى سنة ١٥١٧ م ، أي أنه أدرك  
الفتح العثماني لمصر والشام ؛ غير أنه حمى قبل ذلك بمدة طويلة ،  
وعزل عن وظيفة العمارة ، واستقر فيها بعده ابنه شهاب الدين  
أحمد ؛ ثم ذهب أحمد هذا مع فئات المعلمين ( المهندسين )  
والصناع الذين حملهم السلطان سليم الأول العثماني من القاهرة إلى  
إسطنبول ، ليقيموا له هناك بمثل ما رآه بعاصمة المماليك من  
المباني والعمائر ، ثم رجع مع الراجمين من المصريين حينئذ إلى القاهرة  
بإذن السلطان العثماني .

(١) ابن إياس : بدائع الزهور — طبعة بولاق — ج ٣ ، ص ١٠٧ .

ولابن إياس ثبت يستغرق أربع صفحات كاملة من تاريخته  
الكبير ، فيه أسماء أولئك المعلمين والهندسين الذين ذهبوا إلى  
إسطنبول ثم رجعوا عنها إلى القاهرة بعد قليل ، وفيه أسماء غيرهم  
من الشخصيات الكبرى والصغرى ، وأولهم الخليفة المتوكل  
العباسي . زليت ابن إياس ذكر من ضمن أولئك وهؤلاء أحمد  
ابن زنبيل المحلي الرمال . رابع مناصريه من المؤرخين في مصر ،  
أو أورد بشأه خبراً واحداً ، فإن المراجع العرونة لا تكاد تنبي  
بشيء عنه سوى أنه كان موظفاً بديوان الجيش العثماني في وقت ما ،  
وأنه رافق جيش السلطان سليم الأول أثناء الحروب التي أتمت  
دولة المماليك بمصر والشام ، وأنه حضر جنازة طومان باي آخر  
سلاطين المماليك لتوزيع الصدقات على روحه بأمر السلطان العثماني .  
ولابن زنبيل كتاب تاريخ أخذ مصر من الجراكسة ،  
وهو سجل وافٍ لحوادث الفتح العثماني ، من يوم خروج السلطان  
قانسوه الفوري من القاهرة للاقاة الممانيين بشمال الشام ، إلى  
يوم رجوع السلطان سليم الأول مظفراً إلى إسطنبول . ولهذا  
الكتاب مكانة كبيرة منذ تأليفه ، ومنه كُتبت نسخة  
— أو نسخ — شعبية ما برحت تسليمة المقاسي بالقاهرة منذ القرن  
السادس عشر الميلادي ، وترجمه السهيلي إلى التركية في القرن

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور — طبعة إسطنبول — ج ٥ ،

السابع عشر، ضمن كتاب له اسمه الدررة اليتيمة في تاريخ مصر القديمة، واعتمد عليه مارسيل (Marcel)، أحد المستشرقين بالحلمة الفرنسية على مصر، في كتابه الذي ألفه في تاريخ مصر الإسلامية، ولا يزال مرجعاً من الدرجة الأولى حتى الآن. وتوجد من هذا الكتاب نسخ عديدة متفاوتة الحجم والقيمة بمختلف المكتبات العامة والخاصة، ومنها نسخة شعبية مطبوعة طبعا رديئا، وربما عني به المصنفون بالتاريخ المصري قريبا، لتكون منه نسخة منشورة نشرأ نهائيا مقارنا، يطمئن إليها المؤرخون اطمئنانا علميا.

ولابن زنبيل عدا ذلك من المؤلفات كتاب في التاريخ باللغة التركية، وهو يشتمل على حكام مصر العثمانيين في زمنه، وكتاب تحفة الملوك والرغائب لما في البر والبحر من المعجائب والفرائب، وهو في الجغرافية، وكتاب المقالات في حل المشكلات، وهو في علم الخط والرمل والتنجيم، وكلها مخطوط مهمل إهمالا تاما. والمعروف كذلك من أخبار ابن زنبيل أنه بقي حيا يرزق من وظيفة بديوان الجيش العثماني سنة ١٥٤٤ م، وأنه أقام وقت ذلك ببلدة أبي قير الحالية قرب الإسكندرية، وأنه توفي بعد سنة ١٥٥٢ م.

وإذا كان ما لدينا من أخبار ابن زنبيل الرمال لا يكفي لكتابة ترجمة متصلة الحقائق شافية، فإن المراجع تضيف بأخبار محمد بن طولون الدمشقي آخر معاصري ابن إياس من المؤرخين،

فضلاً عن ترجمة ذاتية<sup>(١)</sup> كتبها هذا المؤرخ لنفسه تقليداً  
للسابقين من الماصرين والمقدمين كالسيوطي ، وهي في أربع  
وخمسين صفحة من القطع الصغير ، لا يخرج القارى منها بشيء  
كثير ، خلاصته أن ابن طولون وُلِدَ سنة ١٤٧٥ م بصالحية  
دمشق ، وأن أمه أزدان الرومية توفيت وهو في سن الطفولة  
الأولى . وتعلم ابن طولون على شيوخ دمشق ، ومنهم عمه القاضي  
جمال الدين يوسف الحنفي مفتي دار العدل بها ، والمؤرخ .الدمشقي  
محيي الدين النعمي ، والمحدث جمال الدين ابن المبرد ؛ ثم  
رحل ابن طولون في طلب العلم إلى مكة سنة ١٥١٤ م هـ ، فسمع  
بها على الحافظ عز الدين بن فهد ، وأجازة السيوطي إجازة بالمكاتبة  
من القاهرة .

وقرر ابن طولون في ترجمته الذاتية أن عدّة شيوخه بلغت  
خمسةائة ، وأن العلوم التي اشتغل بتحصيلها تزيد على اثنين وسبعين  
علماً ، ومنها الحديث والكلام والأصول ، والنحو والصرف  
والمنطق ، والطب والهيئة والهندسة ، والمغاني والبديع والحساب ،  
والفرائض والعروض والفلك ، والميقات واللغة والتاريخ ، والفقہ  
والتصوف والتفسير . وأجازة مشايخه في بعض هذه العلوم

---

(١) اسم هذه الترجمة الذاتية الفلك المشغون في أحوال محمد بن  
طولون ، وهي مطبوعة بدار مكتبة القديسي والبدير بدمشق ، سنة  
١٣٤٥ هـ .

الإجازة والإجازتين والثلاث ؛ ولذا جاء ابن الطولوني كالسيوطي  
تماماً من حيث مشايخه وعالمه وبرامته العلمية وجماعته ، بل أصاب  
المرحوم تيمور باشا حينما وصفه بأنه سيوطي الشام .

والواقع أن الشبه بين الرجلين يتعدى إلى مؤلفاتهما وأنواعها  
وقيمتها كذلك ، بل تزيد مؤلفات ابن طولون الدمشقي كثيراً عن  
مؤلفات صاحبه المصري ، وهي واردة في ترجمته الذاتية — وفي  
غيرها من المراجع — في عدة صفحات بترتيب أبجدي لكثيرتها .  
ومن هذه في التاريخ كتاب غير معروف العنوان على التحقيق ،  
ولا يوجد منه حتى الآن سوى قطعة صغيرة طبعت<sup>(١)</sup> حديثاً ،  
ولعله كتاب عجب الدهر في تذييل من ملك مصر ، أو كتاب نزهة  
الناظر في معرفة الأواخر ، أو كتاب مفاكهة الخلان في حوادث  
الزمان . وكيفما كان الأمر ، فهذه القطعة من ذلك الكتاب المجهول  
هي التي أهملت ابن طولون لأن يكون في عداد المؤرخين الذين يرجع  
إليهم في كتابة التاريخ المصري في المصور الوسطى ، لانفرادها  
بحقائق تاريخية هامة في الفتح العثماني وأسبابه وحوادثه ،  
واشتمالها على مارآء مؤلفها من حوادث ذلك الفتح بدمشق ، مما  
لم يرّه ابن إياس وهو بالقاهرة

---

(١) عثر المستشرق ريتشارد هارتمان (Richard Hartmann) على  
هذه القطعة بمكتبة جامعة توبنجن (Tübingen) ، ونشرها سنة ١٩٢٦ تحت  
اسم (Das Tübinger Fragment der Chronik des Ibn Tūlūn.)

ولابن طولون في التاريخ كذلك كتاب المقود للأوثوية في الدولة الطولونية ، وكتاب حورالميون في تاريخ ابن طولون ، وهو تلخيص مع زيادات لسيرة أحمد بن طولون للباوي<sup>(١)</sup> المؤرخ المتوفى حول منتصف القرن الحادي عشر الميلادي . وعثر ابن طولون على تلك السيرة في دكان وراق ، فاشتراها وأهداها لخزانة المدرسة العمرية بصالحية دمشق ، وكتب عليها بخطه أنه ابتاعها بتسعة قروش ، وكل ذلك تقدير منه لمؤسس الدولة الطولونية الذي اعتبره جده الأعلى .

ولابن طولون كذلك في التاريخ كتاب الشعر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام ، وكتاب إعلام الوري عن ولي نائبا من الأتراك بدمشق الكبرى ، كما أن له في التراجم كتاب سلك الجمان فيما وقع لي من تراجم ملوك بني عثمان ، وكتاب النطق المنبي في ترجمة الشيخ المحيوي ابن العربي . وكتاب الاختيارات المرضية في أخبار التقي ابن تيمية ، وكتاب التمتع بالأقران بين تراجم الشيوخ والخلان ، وهو ذيل على تراجم البرهان البقاعي المعروف باسم عنوان الزمان ، وغير ذلك كثير في مختلف العلوم والمواضيع والصناعات .

---

(١) نشر الأستاذ محمد كرد علي بك هذه السيرة الطولونية حديثا من نسخة وحيدة وجدها بالمكتبة الظاهرية بدمشق ، وسند بنشره وتحقيقه هذا الكتاب ثمرة واسعة من ثمرات التاريخ المصري أوائل العصور الوسطى .

واشتغل ابن طولون فوق ذلك بوظائف عديدة من تدريس وإقراء وإمامة وخطابة ، ومشاركة وفتاها ومشيشة ، بمختلف معاهد دمشق وجواممها وزواياها وخوانقها ، فكانت أوقاته معمورة تماما ؛ وظلّ على كثير من تلك الوظائف برغم ما جرى على دمشق من تغير الدولة بعد الفتح المماني ، وتوفى سنة ١٥٤٠ م ، ولم يعقب أحداً .